الفصل الخامس

الجاذبية عامل تكيف الإنسان في وسطه

obeikandl.com

obeikandl.com

١- ما بين تعب العقل وحداثة الجاذبية

مهانة العقل فضيحة عصرية، وإننا إذ نتألم لمصابنا نعيش كالأيتام نبحث عن رعاية.

تقزّمت العهود وضاقت من حولنا الحدود وبات الوئام بعيد المنال.

فهل تعب زمن العقل حقاً؟ أم أننا في زمن عقل فاشل؟ وما هي إمكانياتنا للنهوض مجدداً؟ الجاذبية في الانتظار، الجاذبية في بهو الانتظار مع المسافر.. في أعماق نفسه، فهي ليست تعبة، حديثة الظهور بعد تغييب طال لزمن غابر ومن الممكن أن تسجل نصراً وسلاماً.

لقد حاولتُ طوال هذا التحليل أن أتعرف على إمكانيات الجاذبية المحررة كقوة تواصل واحترام وقد حذّرتُ من امتهانها بالتنميط وجعلها للترويج لسلع تجارية.

إنني عندما أفكر بالجاذبية أقصدها نبيلة "منزهة" عن كل إسفاف وهي على نقيض "بهرجة" اللوحات الإعلانية وتماثيل الجمال في المجلات الإغرائية.

إن الحياة ساحرة حقاً وهي جديرة حقاً بجاذبيتنا وهي فرصتنا.

يمكننا التعلم من جديد كيف نبتسم أولاً كما في الأيام الأولى من زيارتنا لكوكب الأرض بين أهلينا.

كما يمكننا الأخذ بلبّ الحياة دون وجل وتعزيز مشاعرنا بالمناعة حتى لا تستعمل تلك المشاعر ضدنا، وأن نبادر الآخر في التوجه إليه دون مقابل. بإمكاننا أن نجعل من كل هذا مشروع حياة يقف في وجه هيمنة العقل البارد.

إننا اليوم أحوج ما نكون إلى هذه الجاذبية الطبيعية، والبطالة تستشري بين أهالينا وسوق العمل لا يستظرف إلا ما ندر.. ولرب ضارة نافعة لأيام عجاف.

إن اختيار مزج الجاذبية بحياتنا اليومية يشهد على ما ننعم به من حرية فطرية ولابد أن تكون من أولوياتنا في الوقت الراهن لأن في ذلك إرادة في أنفسنا للتكيف مع الوسط بعلاقة تضخ الروح في عقلانيتنا.

٢- الجاذبية النبيلة عامل تكيف وتطور

إننا باستعمال إمكانيات جهازنا الطرفي بما يوفره من دعم روحي نحظى بنوعية جديدة من المقاومة، مقاومة سلسة وذكية، شعورية وتصوّرية أخّاذة وهو ما يجدر تسميته بالجاذبية النبيلة وربما كان لنا فيها قوة المعارضة الوحيدة أمام العقل المهتاج عنفاً وعامل التكيف الأمثل الذي يسمح بتطوير علاقتنا بالعالم لنبقى ونرقى لا أن نبقى لنشقى.

إن اعتماد **الجاذبية أداة مقاومة** يساهم باعتقادي بنبذ العنف واعتبار القوة الحقيقية في النهاية تكمن في الشخص نفسه وهي التي تحميه دون غيرها.

إن تطوير الرغبات إلى صفات مكتسبة شيء معروف في تاريخ الإنسانية وإلا ما زلنا نقبع في كهوف ما قبل التاريخ.. إننا مرتهنون للمستقبل.

الاصطفاء الطبيعي كان قد اختار على الدوام الأكثر قوة واستعداداً للحياة وسوف يختار اليوم الأكثر جاذبية لأنهم الأكثر قوة واستعداداً للحياة بقدرتهم على التكيف في أعماقهم.

وإذا ما رجعنا في تاريخ التطور نتبيّن أن كل عوامل التكيف المعتمدة في عملية الاصطفاء الطبيعي كانت قد بدأت تُكتسب فردياً.

وتاريخ التطور هو كتاريخ تطور الفرد نفسه، إنه نتاج خيارات بسيطة متتالية لا تنتهي ولكنها عنيدة بتكرارها انتشرت على مدى عدة ملايين من السنين لتصبح فيما بعد جزءاً من جنس وصفات مكتسبة لأنواع مختلفة..

وإذا كانت أدمغتنا الثلاثة قد لعبت دوراً رئيسياً في تطورنا وبقائنا فهذا يعني أنها مازالت مؤهلة للقيام بمثل هذا الدور في حاضرنا.

وعلينا أن نعي ذلك بمسؤولية لأن المستقبل يمكن بناؤه منذ اللحظة في ذواتنا.

فما يصبح "عولمياً" يظهر في بدايته محلياً وليس العكس كما نراه يهدف في الوقت الراهن بصلف يُنذر بالخطورة، حيث تعمل امبراطوريات للنيل من عزيمة الفرد ولجم حريته وتحييده في ركنٍ للبقاء تحت المهانة والإفقار.

وإذا بقينا على هكذا حال فسوف تصبح الحياة نقمة لا تطاق، لقد آن الأوان لتحويل مسار بخار الماء في الأنبيق قبل الانفجار. حان الوقت لنعمل بالجاذبية على تنظيم سلوكياتنا وبتضافر الإرادات الشخصية نقوى.

لابد من توقيف المهزلة هذه بتنازل دماغ العقل المهتاج عن عرشه والسماح للجهاز الطرفي بتأكيد هويتنا نساءً ورجالاً.

إن القيم التي تبنى فقط على قاعدة من القشرة ا لدماغية تضع حدودها بنفسها في حين برهن التاريخ على مر العصور على أن المشاعر تبقى أممية أبدية.

بإمكاننا "العبث" إرادياً بمسالك العصبونات المؤتمرة بأوامر القشرة الدماغية الذكية وبإمكاننا أيضاً قلب الدارات وإخراج القطار عن سكته أيضاً لأننا نملك البنية الكيميائية الحيوية التي تسمح بذلك. كيف؟

حين نقرر الحياة في ظلال جهازنا الطرفي وهو موجود فعلاً ولا نرفل بطاقاته! إن الآلية التي تعمل بها أدمغتنا الثلاثة سمحت للإنسان القديم بالتطور وهي مازالت قادرة على رفد محرك التطور بما يلزم.

ما تبقى لنا أن نفعله هو أن نؤمن بذلك أولاً وأن نؤمن بإمكانية تطور البشر إلى أفضل على سلم الاصطفاء الطبيعي وهي فرصتنا الوحيدة حيوياً لديمومة تميز الإنسان عن الحيوان.

ولكن الاصطفاء الطبيعي يعتمد كذلك على مقدرة التكيف وهي تخضع للاستقرار والتنوع. إن استقرار بقائنا على قيد الحياة كجنس بشري مازال مؤمَّناً بفضل زائعة الصيت قشرتنا الدماغية سيّدة ا لموقف فهي التي تبني المجتمع وتحافظ على بنيانها وتعمل على تطويره في حين يحدد التنوع والإبداع هويتنا بفضل جهازنا الطرفي. ولنا من هذا الجهاز في بهو الانتظار دعم بلا حدود من الجاذبية.

obeikandi.com

obeikandl.com